مطبوعات الفجر

٦٣

أَسْمَيْتُكِ نَصْرَةْ

رواية

د. صلاح العزب

الطبعة الأولى
الكتاب : أَسْمَيْتُكِ نَصْرَةْ
المؤلف : د . صلاح العزب
تصنيف الكتاب : رواية
تصميم وإخراج : محمد جمال
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ١٥١٧٢ / ٢٠١٥
الترقيم الدولي : 978 - 977 - 776 - 082 - 9

التجهيزات الفنية والطباعة
دار يسطرون
للطباعة والنشر والتوزيع
طباعة وتوزيع الكتب فى جميع أنحاء العالم
المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت -محطة المطبعة
شارع الملك فيصل - الجيزة
جمهورية مصر العربية
٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢
مدير الإنتاج : أحمد عبد الحليم
رئيس مجلس الإدارة : عمـاد سـالم

جميع الحقوق محفوظة

إهـــداء

إلـى البحيـرة.. والقنـال.. وطـرح البحـر.. والجميل.. وحى المناخ.. وكوريا البلوكامين..

وإلى محمد صلاح

صلاح العزب

الفصل الأول

عفريت المقابر

ذات صبـــاح.. ســـرنا – صفا – بحذاء الماء.. قطعنا مســـافة طويلة.. من الشـــاطئ المقبل لمبنى المحافظة حتى ذاك المقابل للجبانـــة – حيـــث كانوا بين الحين والآخـــر.. يحملون أحدهم على الأعناق.. فـــى اعتزاز.. وحزن.. ووقار.. يوســـدونه حفرة فـــى الأرض.. يهيلون عليه التراب.. ثم.. يثرثرون.. يدخنون.. يمصمصون.. يضحكون.. يأكلون.. يصرخون.. يتعاركون..، ثم يعـــودون بعد حين.. حاملين أحدهم على الأكتاف.. يوســـدونه التراب... ويعودون...!!

فى ذلك الصباح الشـــتائى سرنا.. كنت أشعر بالوسن ما يزال يعشـــش فى العيون.. رغم انقشاع الســـحب.. وهدوء العاصفة.. وانديا‌ح أشعة الشمس فوق الأمواج.. والرمال الرطبة.. والأصداف المتخلفة عن مد المساء.

بضعة أولاد – لجأوا إلى البحر هربا من مدارسهم – يجمعون الأســـماك الصغيرة.. والحناجل.. وبراغيث البحر.. فى أكياس من النايلون، وثمة شاب وفتاة.. خطواتهما ترسم نصف دائرة..

بينما ينظران إلى الأصداف المتناصرة تحت الأقدام.. والأسماك المتخلفة عن صيد الصباح الباكر.. وتارة إلى الموج المترادف..، يمشيان بضع خطوات.. ثم يتوقفان ليتبادلا حوارا مقتضبا لا يكاد يسمع ! !

فى ذلك الصباح الشتائى المشمس.. تجاوزنا قاربى الصيد المنكفئين على الرمال.. والكبائن الشعبية الملآى بالأطفال والدجاج والنسوة العجائز و.. وبينما أتقدم الصف.. كنت أتوقف بين الحين والآخر.. ألتقط سمكة «سيوفى» طازجة.. أو أداعب «حنجلا» صغيرا لفظته الأمواج.. أو أنظر خلفى.. فيتوقف الصف قليلا.. وينشغل كل فرد فيه بشىء مماثل.

فى تلك اللحظة التى أشرفنا فيها على اجتياز السلك الشائك الممتد إلى مسافة كبيرة من الشاطى.. فى تلك اللحظة.. كان جندى يحمل بندقية منكسة على كتفه.. يتمشى على مهل.. مقررا.. عيناه فى الرمال.. ويداه فى جيبى سرواله؛ وكان آخر – منتشيًا بأشعة الشمس – قد راح بالفانلة نصف الكم.. وفى سعادة غريبة.. يتناول ملابسه المغسولة من دلو بلاستيكى كبير.. يعصرها.. ثم – فى حركات آلية – ينشرها على جبل طويل يصل ما بين عامود الهاتف وسارية علم مهجورة بأرض الطابور..!

فــى هذا الموقــف توقفنا – كالعادة – خلــف (مين) الضباط حيث أقوم بمهمة اســتطلاع.. أتفحــص خلالها صندوق القمامة المعدنى الضخم.. ذا الباب المفتوح..؛ وكانت مجرد ايماءة منى إلى الفريق تعنى على الفور:

– أقبلوا.. صيد وفير!!.

كنــا – نحن القطــط الصغيــرة – نتصارع أحيانــا من أجل ســمكة.. لكن ســرعان ما كنا نهدأ.. ونعود لنلهو سويا.. وننام تحــت أعمدة المطعم البحرى أو نتــوارى فى دفء مناضده..؛ نقنع بما يتخلف من شــباك الصياديــن.. وما تعافه النوارس أو يتساقط من مناقيرها!

علمتنــا المدينة ألا نتصارع مع الــكلاب.. ومع ذلك لم نفتح لها قلوبنا.. فلا نحن صرنا أصدقاء.. ولا نحن أظهرنا العداء!.. ربمــا نتلاقــى.. ينظر أحدنا إلى الآخر.. ثم يغادره ســريعا بلا مبالاة! فى الماضى كان ذلك يشــغلنا كثيرا.. ثم تلاشــى شيئًا فشــيئًا حتى صار لا يشــغلنا على الإطلاق – هناك أجيال كاملة من القطيطات الصغيرة لم تســمع بشجار.. ولم تر أبدا مواجهة بين قط و.. كلب!!.

يبــدو أن الوقت قــد مضى ســريعا.. إذ لم نكــد نخرج من الصندوق المعدنى؛ وننظف أجسامنا مما علق عليها من بقاياه..

حتى كانت الشمس قد جنحت قليلا تجاه مقام «المغربى» – وهو مقام صغير أشبه بـ «السبيل» يقع على امتداد الشاطىء من جهة الغرب – لا يحج إليه إلا الباحثون عن الهدوء والاستلقاء على الرمال بعيدا عن ضجيج المدينة.. يتناوب على سكناه صياد عجوز وامرأته.. وبعض «اللبيسة» – وهم طائفة دنيا من صغار المهربين يرتدون فوق ما تحتمله أجسادهم النحيلة من ملابس «البالة» والمنطقة الحرة – ويتخذونه محطة فى غدواتهم وروحاتهم بين المدينة وبين «دمياط».. حيث يوجد تجار من فئة أعلى يقومون بتشغيلهم بصفة منتظمة.

وبعد أن غفونا قليلا تحت ظل الصندوق الضخم.. خرجنا إلى الطريق المحاذى للبحر متخذين ذلك الشريط الضيق بين سور المعسكر وبين محطة وقود الطريق السريع... حيث كان يحلو لنا أن ندلف من بوابة «الجبانة» إلى حيث ننعم بالهدوء مع وجبة خفيفة من بقايا «الرحمة» – وهى أقراص شهية من الخبز المعجون بالسمسم والسمن – بينما ننصت إلى شيخ ضرير.. يرتل كلمات منغمة هادئة تهتز لها رؤوس نسوة متشحات بالسواد.. وتتساقط معها دموع من أعينهن...!

كانت الشمس قد اختفت تماما تحت «دشمة» عسكرية خلف جسر «الجميل» الذى لا يبعد كثيرا عن «الجبانة» حين رأيناه

كعهدنا به يأتى زائغ العينين.. مهدل الثياب.. يهرول فى غير ما اتساق.. وكان الليل قد لف بعباءته المقابر بالكامل.. رغم أن هذا لم يكن ليغير من الأمر شيئا بالنسبة إلينا.. إذ كانت عيوننا تزداد حدة فى المساء!!

رأيناه يهرول.. وينكفىء.. ثم يستند على شاهد مقبرة.. وينهض.. فعرفنا بغريزتنا أنهم قادمون.. فتبعناه، وعلى الرغم من اتساع خطواته وخفة قفزاته فقد كان باستطاعة المدقق أن يلمح عرجا خفيفا فى إحدى ساقيه..

لم يكن يتعدى الثلاثين إلا أن رأسه كانت قاحلة تماما، وكنا من مخبئنا خلف كومة التراب التى خلفها حفار القبور نستطيع أن نتبين لمعان صلعته تحت ضوء المساء الشاحب.

همهم للحفار بتحية؛ رد عليه الآخر فى قرف بينما انهمك فى إخراج صخرة ثقيلة من أحد جوانب الحفرة، عرض عليه المساعدة؛ لم يبد استجابة..، نصب الحفار قامته العجوز.. مسح قطرات عرق خفيفة على جبينه.. أشعل لفافة رأينا لعاب الآخر يسيل لمرآها.. كانت يداه ترتعشان فى رجاء.. لم يعره الحفار أدنى التفات.

عندما اختفى الحفار فى الظلمة متجها صوب مدخل الجبانة ليكون فى استقبال الوافد الجديد.. أكتشف صاحبنا أنه الآن

قد صار بمفرده.. نفخ صدره كأنما يزيح عنه هما ثقيلا.. وأحس بامتلاكه هذا الاتساع.. بما فيه من قبور.. وموتى.. وسحالى.. وحشرات طائرة.. وهواء مشبع بالملح والرطوبة العفنة...؛ نظر إلى الحفرة.. ثم هبط إلى داخلها مسرعا.. ظل قابعا حتى حسبنا أنه مات.. لكن رشاش التراب الذى اندفع منها بعد حين أخبرنا أنه ما يزال بالداخل.. إذ كان يقوم باستكمال حفرها حسبما ارتأى..، بعد قليل سكن الصوت تماما. لم يخرج أحد!!.

اقتربت فى حذر من الفوهة فرأيته بداخلها ممددا بجسده العملاق ورأسه الأصلع وعيونه المتحفزة.. بينما كان صدره يعلو ويهبط لاهثا...!!

ترى فيم هذا اللهاث والتحفز؟! البعض يروى أنه كان إنسانا طبيعيا.. فلما ماتت أمه وهو فى السابعة.. تعهده والده السكير وزوجة أبيه الشرسة.. فهرب من البيت والمدرسة.. وفى إحدى الليالى.. وجد باب الواقع مواربا.. والحارس يغط فى النوم.. فانسل خارجا.. وأستأثر بفرودسه المفقود.. راح يشعر بقزمية الناس وعملاقيته.. بثقلهم وخفته.. يطير فى الفضاء كلما أراد.. يسبح فوق الأمواج.. يغوص تحت الماء.. يختفى فى باطن الأرض؛ كم من مرة عاشر ابنة ملك الجان؛ رأت فيه فارسها

الإنسى المنتظر.. أشبعها وأشبعته، لكنها بين الحين والآخر.. كان يفلت من الأسر.. يجرفه إلى المقابر تيار لا يدرك كنهه!! ربمـا كانـت المقابر تعنى لديـه لقاء لا يتم أبـدا بأمه التى لم يخبروه بقبرها!!!.

وقالوا: عفريت! – عندما رأوه لأول مرة خارجا من مقبرة!! – صار الأطفال يركضون مذعورين كلما صادفوه... كان يحب أن يركض وراءهم.. يشـعر فيهم بطفولته التى لم يعش.. ويعز عليه ارتياعهم كلما أحسوا بمقدمه. ولكثرة ما ركض.. لم يعد يمشى.. تحول إلى إنسـان دائم الركض، فوجىء به سـائق سيارة أمامه فارتعب واختلت سـيطرته. أصابه فى ساقه وهرب!! من يومها وبخطواته ذلك العرج!!!.

لم يره أحد يأكل.. أو يشـرب.. أو ينام؛ الذين رأوه... رأوه راكضا.. متحفزا.. وبيده المرتعشة بقايا لفافة تبغ!!!.

لـم يعرف لنفسـه اسـما محـددا.. كان يسـمعهم يرددون متوجسـين: «حسـن الجن».. وأحيانا «الأقرع» وأحيانا أخرى «عفريت الجبانة»!!!.

لكننـا أبدا لم نكن نفزع لرؤيته.. صـارت بيننا وبينه علاقة غير مرئية... كنا نرى فيه قططيتنا المذعورة.. الشـاردة.. وكان يـرى فينا رفقة الليل.. وصناديق القمامة.. والمقابر... والبحر..

وبــرودة الأرصفــة، لم يكن لــه من صديق ســوانا... حتى زعم البعض أنه «مخاوى» جنية تتقمص جسد قطة... وأقسم البعض أن إنســان عينيه مشــقوق شــقا طوليا مثل القطط.. وكان مثلنا يتجنب الكلاب ويفزع لنباحها!!!.

لــم تبدر عنه بادرة إحســاس إذ تطلعت إليــه ممددا داخل الحفرة؛ فعدت أشــغل نفسى باستراق الســمع إلى دبيب القادمين من مدخــل الجبانة حاملين النعش على أكتافهــم.. يتقدمهم كالعادة حفار القبور.

عنــد اقترابهم تواريت وزملائى القطط خلف شــاهد قريب، اقتربوا أكثــر.. وهــم الحفار بالنزول إلــى الحفرة رغم الظلمة التى لم تقشــعها المصابيح البعيدة....؛ ولم يكد يضع قدمه بداخلها ولفافة التبغ ما تزال مشــتعلة بين شــفتيه حتى ندت عنه صرخة واحدة مكتومة إذ فوجىء بذراع تمتد إليه من القاع فانهار على التو!! بينما غرق جســده الضئيل فى بحر من العرق البارد!! ثم فقد النطق والحركة تماما!!!

نسى المشيعون وأقارب الميت الجثة التى يحملونها.. تركوها وحدها على حافة الحفرة!! انحنى أحدهم على قلب الحفار متسمعا ثم انتصب فى أسف: – مات!!.. لم نصدق أعيننا رغم أن الجثة كانت قد تمددت فى استسلامها الأخير بجوار الجثة الأولى..!!

انتشر الخبر بسرعة البرق بين الصفوف ولم يكد البعض يتبين حقيقة

ما جرى على وجه اليقين حتى زعق بوق الشـرطة المميز مخترقا صمت المقابر..، انهالت الأسـئلة على أقرب الواقفين... هبط جندى شـاب تنفيذا لأمر شـديد الحزم مرتعدا إلى قاع الحفرة.. بينما أخذت البنادق ترتعـش فى أيـدى الآخرين إذ تحلقـوا الحفرة؛ فى حيـن آثر أغلب المشـيعين السـلامة فلاذوا بالفرار؛... احتاطت القلة الشجاعة فتشبث واحدهم بالآخر مترقبا ما سيسـفر عنه البحـث..!!! وإذا به يبرز من قاع الحفرة.. عملاقا.. أصلع الرأس.. مستدير الوجه.. زائغ النظرات.. متحفز الملامح... وذراعه على امتدادها... وأجزم أننى سـمعته وسـط الضوضاء يرجو الضابط فى استعطاف:

– هات سيجارة.

●●●

الفصل الثانى

الحية...!

كم تبعث هذه الشوارع على الضيق! ! استقامتها دون أدنى انحناء تجعل أولها معروفا لآخرها.. وهذا لا يناسبنى؛ أنا ابن المنحنيات والحفر والأزقة المظلمة.. ابن المدينة القرية لا المدينة المدينة.. ابن الأضواء الخافتة المرتعشة والقلوب الواجفة الحنون؛ السفن المزغردة و «البمبوطية الجدعان»؛ السمك الأقة بقرش والجمبرى الخوصة بدون مقابل؛ المقاهى المدارس.. والمدارس المساجد.. والمساجد العامرة بالملائكة والدراويش وعابرى السبيل.

أيتها الأيام التى حصدتها رياح الشتاء والأنواء الشمالية الباردة.. أعرف أنهم قد اتفقوا فيما بينهم على اتهامى بالجنون! ! ولكن لا غرابة بعد اليوم.. فقد أنكرنى الرجل الذى جئت من صلبه!.. وأمى أخفوا عنى مكان قبرها!.. هى الأخرى بخلت على بالحقيقة.. لم تشأ أن تخبرنى بها أبدا...!

كنت أضطجع ويغلبنى النعاس فأدلف إلى عوالم متعددة

الألوان.. أقطف من أزهار الجنة؛ أشـدو مع عصافيرها؛ أتكىء على فرشها السندسـية.. والحور يملأن لى كئوس اللذة التى لا تنتهى!

إنهـم يقيمون بيـن عقولهم وبينى سـدا.. لا يدركون أن من أتـرع من اللذة الأبديـة لم يعد له من مطمح فى دنياهم؛ ولا فى ملابسهم الآتية من خلف البحر.. أو هوسهم الدائم بالمال.

وبقدر اسـتماتتهم فى الصراع للاسـتحواذ علـى ذلك المال بقـدر ما كانوا ينفقونه على ملذاتهم الدنيوية.. حتى إنهم كانوا يتنافسون فيما بينهم على من ينفق ما فى جيبه أسرع من أقرانه!

لـم يختلف أبى عنهم، كان «بمبوطيا» فى البحر، يخرج فى الصبـاح الباكر ولا يعود إلا بعد منتصـف الليل، حياته، كلها موزعة ما بين البحر.. والسـفن المنتظرة فـى القناة.. والبحارة الأجانـب.. ومقهى الميناء.. وبار «الخواجة كرياكو»؛ لا هم له من الدنيا سوى اقتناص القرش وإضاعته فى التو واللحظة.

دأب أبى على مقايضة البحارة؛ يبيعهم «الأنتيكات» الشرقية والجعارين الفرعونية مقابل المعلبات وصناديق السجائر الأجنبية وزجاجات البيرة؛ وفى سبيل ذلك صار والبحر كيانا واحدا..! فيـه غضب البحر واندفاعه؛ وفيه أيضا استسـلامه الأبدى فى

الزمـــان والمـــكان بينما أســـماك القرش تلهو فـــى جوفه ! ولهذا استســـلم خانعا لكل رغبات وأهواء زوجته التى تصغره بعشرين عاما ! ! .

لم تكد ليلة واحدة تمضى – مذ وعت عيناى – دون شـــجار يشب بينهما ؛ تتطاير فيه أقرب الأشياء على رأس أبى المستسلم ؛ فلا يجد مناصا من الهروب إلى بار «كرياكو» حيث يســـهر إلى الصباح ؛ ومنه يتجه رأسا إلى البحر وقد لعب الشراب برأسه ! !

لم أكن أجرؤ على أن أطل برأســـى من أســـفل الســـرير ذى الأعمـــدة الصدئة ؛ حيث كنت أنام فى الحجرة الوحيدة الضيقة التى نعيش بها ثلاثتنا.

فـــى تلك الليلة كنـــت قد بلغت الرابعة عشـــر ؛ كان أبى قد خـــرج كعادتـــه مصحوبا بكل أنواع الســـباب ؛ فلـــم يغمض لى جفن ، صفقـــت الباب وراءه كعادتها ؛ وبكل هدوء عادت مزهوة بانتصارها ، أخذت أرقبها محنقا من مخبئى أسفل السرير حيث تعشش الظلمة ؛ وقفت أمام المرآة ؛ تطلعت إلى جسدها الأبيض مارة على منحنياته براحة يدها ومســـتديرة بجذعها بين الحين والآخر ، أعادت النظر إلى جسدها مرة أخرى ؛ ثم اعتلت السرير الذى اهتز حتى تملكنى الرعب أن يسقط على رأسى ! !

تذكرت امرأة أخرى اختلسـت مشـاهدتها فى سينما «مصر» صباح يوم جمعـة؛ نفس التأوهات الخافتـة؛ نفس التأودات؛ كأنما هى حية تسـعى!! آه لو أسـتطيع الآن تحطيم رأسـها وأخلص أبى من سمومها!! سأنتظر حتى يعلو شخيرها؛ أتسلق السرير؛ أغرز أصابعى فى رقبتها حتى تخرج كل ما بداخلها من سـم!!! سأحيا بعدها وأبى فى نعيم مقيم؛ لن يضطر بعده إلى سـهر الليالى فى الخمارة؛ سيعود إلى تدليلى مثل أيام طفولتى الأولى؛ سـيتذكرنى فى الأعياد بالملابس الجديدة؛ سيصحبنى إلى البحر أسـاعده فى عمله؛ سـأقف على حافـة اللنش إلى جواره أعاونه فى المسـاومة والمقايضة مع الأجانب و.....!!! يزداد السرير اهتزازا فوق رأسى!! حدة الفحيح تزداد ارتفاعا؛ وكأنما شعرت بوجودى لأول مرة:

– حسن.. أنت صاحى؟!.. ما تزعلش منى.. تعال يا ابنى.. تعال نام هنا.. يمكن نومة الأرض هى اللى عاملة لك قلق!!

هل يعقل هذا؟. هل صحيح ما سـمعته أذناى؟!.. تجاهلت نداءها وحنوها المفاجىء.. لم أتعود مثله من قبل!!!

ابنك يـا ابنة الأفاعى!؟ أين كان هذا الحنان الغريب!؟ فى أى كهف شيطانى خبأته لتخرجيه هذه الليلة دفعة واحدة؟!!..

وانزلقت ساق؛ ثم امتدت ذراع تشجعنى على الصعود..

– وبعديــن معاك.. تعال احك لى رحــت فين النهاردة بعد المدرسة؟!

غريب أمرك أيتها المرأة ســليلة الجنيات!!.. تزداد الساق انزلاقا.. تتبعها الســاق الأخــرى.. تنحنى على ركبتيها زاحفة إلى حيث كنت أزداد انكماشــا مثل كرة مثقوبة بجوار الحائط! راحت تمشــى على أربع؛ يســبقها حثيث كاشتعال بطىء فى غابــة لم تكد تجف من أمطار الليلة الســابقة!!.. لحمها يلمع فى الضوء الشحيح تحت حبات عرق تتخذ لنفسها مجرى على العنــق؛ ما لبثت أن احتوتنى بذراعيها.. ثم أخذت تربت على كتفى.. وتمسد شــعرى المجعد بأظافرها الطويلة كالحراب...! كنت أعانى ما يشــبه الاختناق داخل صدرها بينما راحت يدها تدلــك ظهرى ببطء؛ لــم أجرؤ بل لم أكد أســتطيع التنفس بله الكلام أو الاعتراض!!!... شعرت فى داخلى بخدر لاذع.. ومر المذاق!!!

وفــى الصباح كنت فى الشــارع؛ أهيم على وجهى؛ لا ألوى على شــىء؛ ليســت أمامى وجهة محــددة! وأفقت من ذهولى لأجدنى على شاطىء البحر وحيدا إلا من غموض يلفنى، ظللت

أمشـــى بينما كانـــت الأمواج تهدر بصورة لـــم أعهدها! والرمال تحـــت قدمى تلتهب بدرجة لم أشـــعر بها مـــن قبل!! ونعومة الحيـــة ما تزال تدب فى أوصالى دبيبا كأنه الســـم يســـرى فى العروق!!.. ها أنذا أخرج الآن من الاستسلام للضياع إلى دائرة أكثر اتســـاعا..! ربما هى دائرة الانفلات من أســـر كل شىء!! هذا الشـــبق الخرافى يحمـــل كل ذرة من ذرات كيانى الضئيل؛ يجمعهـــا معا مـــن جديد.. لتدور فـــى فلك آخـــر.. لا اعتراف فيـــه بمنطق الأشـــياء التقليدى... من قـــال إن ذلك البحر يهدر بالمياه!؟... إنه يهدر بالجنون.. والتوق الأبدى إلى الانعتاق.. إلى طوفان من الغضب المقدس.. يغســـل كل شىء أو يغرق كل شىء!! إما أن يحرقنى الغضب.. وإما أن أضىء كالجمرة!!... لـــم يعد ثمة بديل!! أبـــى – فى حقيقة الأمر – مات بعد موت أمى!! لم تبق منه سوى صورة باهتة لكائن يعيش خارج الزمان والمكان! سلبت منه الحياة فى رحلة خاسرة ما بين امرأتين... إحداهما أماتته بموتها.. والأخرى أطفأت فيه كل زيت يمكن أن يضىء.. صار مصباحا صدئا ملقى على الشـــاطىء... ولم أعرف أبدا ســـر التعويذة التى أدلكه بها لينطلق من داخله المارد الذى يغير وجه الأشياء!!!

مـــا الفارق بين ضياعى فى حجـــرة ضيقة تملؤها أنفاس امرأة

مسعورة.. وبين ضياع الطريق من قدمى الآن!؟ إنى الآن أستطيع أن أرى أبعد.. لا أحد يشاركنى الآن ..هذا البحر.. وهذه الرمال.. كل مـا يحده الأفـق ملك يدى.. ولن أتنازل عن شـبر منه بعد اليـوم.. إرادتى هى مملكتـى لأول مرة ولن تكون هى الأخيرة.. سـأعض عليها بالنواجذ... أنا حر الآن.. ووجودى بملك يدى منذ هذه اللحظة...!!!

كانـت جماعة من الصيادين تجذب حبال شـبكة كبيرة..، يشكلون فريقين.. كل فريق يصطف أفراده طوليا؛ وما بين الصفين تمتد الشـباك داخل البحر فى اتجاه يتعامد عليهما؛ أولاد فى مثل سـنى يندفعون؛ يتخذون لأنفسـهم مواقع بين الرجال؛ لم أتـردد فى الانضمام إليهم؛ رحت أجذب بقوة وعنف.. أفرغ ما بداخلى من هموم فى تلك الحبال الخشنة.. التى تمتلىء بالعقد المصطفة كحبات مسبحة بالية...!! (هيلا.. هوب.. هيلا.. يا اللّه...) ... وعندما يصل إلى الشباك.. يرفعها فى استماتة فوق مستوى الموج حتى لا يهرب السردين...!

فى موسـم السـردين يختلط الصيادون المحترفون الآتون من قراهـم الصغيرة المتناثرة فى قلب البحيرة التى تحتضن المدينة مـن الجنوب – بالصيادين الموسـميين من أبنـاء المدينة الذين

ضاقت بهم الحال.. فسعوا إلى الشاطىء خلف الرزق الذى لا يأتى إلا مرة واحدة فى العام...! لهذا لم يكن غريبا أن يجتمع على الشبكة الواحدة شيوخ فى الثمانين.. وشباب مفتولو العضلات.. وصبية ممتقعو الوجوه!! ورغم اختلاف السن، ؛ والقوة.. يتلاشى الكل منصهرا فى واحد؛ واحد عملاق يستنطق البحر... فيندفع لسانه بالسردين فى موسمه.. ثم يعود إلى صمته الهادر.. وضجيجه الأخرس بقية الشهور!!

أوشكت السباك على الخروج من الماء... وكان الناظر إليها من بعيد يستطيع أن يدرك ذلك... إذ يظل السردين يتقافز على امتدادها.. قفزات جماعية.. صاعدا هابطا... كأنما هى رقصة الموت!! أو المحاولة الأخيرة للهروب من الأسر؛ وقلما كانت المحاولة تجدى فيها " هى الشباك تخرج أخيرا ملأى بالسردين.. بينما فى ركن قصى منها كانت ثلة من الجمبرى متروية فى انتظار مصيرها.. وهنا وهناك.. تلمع بضعة من أسماك (الدنيس)؛ أو أسماك (الموسى) المفضضة.. فضلا عن عدد قليل من (الحناجل) و(سرطان البحر) الصغير؛ كل ذلك يتراقص.. أو يتحرك فى هلع زاحفا فوق وسادة من الأصداف مختلفة الأشكال والأحجام.. تتخللها أعشاب البحر والطحالب الخضراء... وبين

الحين والآخر.. تخرج علبة مياه غازية فارغة؛ أو (قنديل بحر) ميت.. أو مشيمة امرأة نفساء!!!

لم تكد الشباك تستقر على الرمال حتى كان المكان قد ازدحم بعربات خشبية صغيرة تجرها الحمير؛ سطحها عبارة عن صندوق مستطيل مفتوح من أعلى؛ وكان سائق العربة الصغيرة ينزل عنها واضعا على الأرض كيسا من الخيش به علف الحمار؛ فينشغل الحمار بالأكل ولا يبتعد عن المكان؛ ثم يتخذ الرجل مكانا فى حلقة المساومة حول الشباك وما تحويه، وعلى فترات متقطعة تأتى عربة نصف نقل؛ ينظر صاحبها إلى كومة السردين فى ازدراء... ثم يغادر المكان بعربته مستصغرا الكمية!!

تنتهى المساومة على السردين بعد دقائق؛ وعادة ما يكون من نصيب أول الآتين من أصحاب العربات الصغيرة حتى ولو كان الثمن الذى عرضه بخسا، فالمساومة الحقيقية تكون بعد ذلك على كومة الجمبرى.. ثم (الدنيس وسمك الموسى)؛ فعلى الرغم من صغر كميتها نسبيا.. إلا أنها كانت سلعة مطلوبة.. مما يزيد المغالاة فى ثمنها؛ وعادة ما يشتريها أحد المساومين مهما بالغ شيخ الصيادين فى الثمن الذى يعرضه؛ إذ سوف يقوم التاجر الذى اشتراها ببيعها بدوره لأحد المطاعم المنتشرة على البحر

– تلك التى تقدم لروادها الأكلات البحرية مرتفعة الثمن!!!

ألفيتنـــى تائها والصبية الصغار فى خضم هذه المســـاومات؛ التـــى كانـــت تحتد حتى ليخيل للمرء أنها لـــن تتم أبدا؛ ثم لا تلبث أن ترخى عنانها فنقوم على الفور بقلب السمك فى إحدى العربات التى يســـارع صاحبها بإعتلائها شـــادا اللجام فينطلق الحمار نحو المدينة بغنيمته!!

كانت النقـــود الورقية تخرج من الجيوب لتدخل فى جيوب أخرى؛ فيركض داخلنـــا الأمل فى الحصول على حصة مجزية من الصفقـــة؛ ظللنا نتنظر حتى انفضت الحلبة؛ ولدهشـــتنا لم يكلـــف الرجل الكبير خاطره أن ينظر إلـــى وجوهنا الغارقة فى بحر من العرق والرجاء!! إذ جمع رفاقه واســـتدار.. بينما كانوا يلملمون الشباك الفارغة قائلا فى استخفاف:

– يا الله يا ابنى انت وهو... لموا (الحناجل) والكم ســـمكة (السيوفى) دى.. وقسموها عليكم...، ثم ينصرف ورجاله تاركا الجمع الصغير وقد انعقدت ألسنتهم إحباطا.. وإحساسا بالظلم المبين!!!

.. هكذا وجدنا أنفســـنا نتقاسم هذه الأشياء مع طيور النورس التى انقضت تتخطف ما تبقى من صغار الســـمك؛ بينما أقبلت من بعيد قافلة صغيرة من القطط تشارك الضعفاء وليمتهم!!!

أخــذت نصيبى فى كيس من (النايلون) عثرت عليه مصادفة على الرمال؛ عدت أدراجى صوب المطعم المرتفع عن سطح الماء بأعمدته الحجرية؛ أســتظل تحته بعد عناء المجهود الشاق!.. وبينما كنت أتاهب للاستلقاء مستندا على أحد الأعمدة.. رأيتهم عائدين.. فى صف صغير.. يتقدمهم قط أبيض مرقط باللون البنى الفاتح؛ شــواربه أطول من شــوارب القبيلة كلها مما ينبىء عن مركــزه القيادى بينها؛.. كلما توقف.. كان الصف كله يتوقف؛ وإذا نظر مستطلعا ناحية البحر.. نظروا جميعا ..؛ أما إذا عاود الســير أو الركض.. فقد كانوا على الفور يحذون حذوه تماما!! لمحت على وجوههم إحساسا بخيبة الأمل إذ لم يشبعوا جوعهم مــن هذا الصيد الضئيــل، فقد اســتحوذ الأولاد والنوارس على النصيــب الأوفر منه رغم ضآلتــه!!.. حقيقة غمرنى الإعجاب بهــم.. بطاعتهم لرئيســهم ذى الشــوارب الطويلــة.. بنظامهم ودأبهم! ولم أملك ساعتها إلا أن أفتح الكيس.. ألقى إليهم بكل غنيمتى من (السيوفى والحناجل) وأطفال السردين!!.. بعدها.. غفوت.. قرير العين.. مستريح الضمير...!

اســتيقظت والشــمس قد بدأت تميل ناحيــة الأفق الغربى؛ فتغمر ســطح البحر بمئات من الســنابل الذهبية أعطت للوقت

نكهــة فريدة؛ وراحت نســمة رطبة تداعب وجه الشــاطىء بما عليــه من شماســى ما تزال تنتظــر المصطافين فلم يكن موســم الامتحانات قد انتهى بعد!!!

اكتشفت أنى لم أكن أستوطن أسفل المطعم البحرى وحدى؛ إذ ســرعان ما تحلقنى رفاقى فى المســكن الجديد! القطط التى أطعمتها حصتى من السمك..! كانت تتمسح بساقى؛ وتدور فى نشــوة حولى.. متقافزة.. بينما تصطنع فيما بينها معارك وهمية مســتعرضة مواهبها فى الأكروبــات والمصارعة الحرة. .احتفالا بوجودى!!

بعد انتهاء العرض.. سكنت تماماً.. واستكانت إلى جوارى.. معلنة امتنانها لقبولى الإقامة بينها.. تحت الأعمدة الحجرية.. والأمواج.. وصفير الريح!!!.

الفصل الثالث

الموكب..!!

لم يكن غريبا فى أى يوم.. أن يرى الناس سربا من القطط.. يسير فى شارع (محمد على) الذى يخترق سرة المدينة.. متجها من مدخلها الجنوبى.. صوب البحر فى الشمال.. وموازيا القناة..! ولم يكن كذلك مستغربا أن يطالع المارة شابا أصلع الرأس.. زائغ العينين.. يمشى طيلة النهار والليل.. ما بين شارعى (الثلاثينى و (أوجينـــى).. مخترقا أزقة (الحميـــدى) و(التجارى).. حيث الزحام على أشـــده.. حول البضائع المســـتوردة.. لا ســـيما أيام الخميـــس والجمعة والعطلات...! .. لم يكن هذا ليشـــد انتباه إنسان...؛ لكن الغريب حقا أن تتصادف فى كل مرة رؤية نفس الشـــاب غريب الهيئـــة.. مخترقا المدينة مـــن جهتيها.. يتبعه نفس السرب من القطط ؛ لا يحيدون عن طريقتهم خلفه.. مهما اشتد زحام السوق.. أو تعاظمت كثافة السيارات..!!

كان ســـيرهم وراءه يرســـم خطا واضحا للعيان.. خطا متصلا

لا انقطــاع فيه ! ! وكأنما قد ربطــوا بحبل غير مرئى فى إحدى ساقيه الطويلتين... ! ، والأغرب منه.. أنه على الرغم من اتساع خطواته البين.. فقد دأب ســرب القطــط على ملاحقته فى جد وصبر لافتين للأنظار ! ! !

فــى البداية.. لم يلتفت أحد لذلك الموكب ؛ لكنه إذ تكرر.. خرج عن دائــرة المصادفة ؛ خاصة لمن اتخــذوا مواقع ثابتة.. مثل شرطى الإشارة التى تحتل تقاطع شارعى (الثلاثينى ومحمد على) ؛ وأصحاب مقهى (الفلاح).. و(كافتيريا فريال).. روادهما الدائمين.. وبائع الترمس تحت تمثال (ديليسبيس).. والعاملين فى (جراج عبد ربه).. وشحاذ عجوز أشعث الشعر على رصيف محطة الســكة الحديد.. وعمال النظافــة بعرباتهم اليد الصغيرة وقت شــروق الشمس.. و(أبو عادل) الفران بحى المناخ.. وطفل يحملــه أبــوه كل صبــاح أمامه علــى الدراجة فــى طريقه إلى المدرســة.. بالإضافة إلى عمال وردية المســاء فى (الملاحات) عنــد عودتهم من (بور فــؤاد) خارجين مــن المعدية زرافات.. مترجلين أو على دراجاتهم... ! وكلب أجرب اســتوطن عشــش (الحرية).. وســحلية.. تقيم بصفة دائمة فى احد شقوق مسكن

متهدم على الساحل من بقايا الحرب.. وسائق تاكسى على خط (كسرى – حى السلام).. وشاعر شاب يشعر بالإحباط... فضلا عن عسكرى الداورية..!!

إذ تكرر ظهور الموكب غير التقليدى لهؤلاء المرة تلو الأخرى؛ كذب البعض عيونهم وظنوه سرابا؛ واعتبره الشاعر المحبط من قبيل الأوهام الشعرية التى تملأ خياله باستمرار! بينما عده عسكرى الداورية شبحا من الجن.. أو لأحد قتلى اليهود إبان الحرب!! فاستعاذ بالله.. وقرأ آية الكرسى.. ولم يجرؤ أن يصيح صيحته المعهودة: هع.. مين هناك!؟

أما الكلب الأجرب.. فقد هز ذيله عدة مرات.. رافعا أذنيه.. وعوى عواء ذئبيا متقطعا كصفارة إنذار أثناء الغارة.. فبسملت عجوز فى إحدى العشش.. مؤكدة أن العفاريت قد باتت تمرح فى الشوارع فى الليالى الأخيرة!!.. بينما توقفت السحلية على باب الشق.. مادة رأسها إلى الخارج.. ومطلقة لسانها كالسهم لتصيد إحدى الهوام.. معتبرة المشهد كله غير ذى بال!! فى حين لوى الطفل عنقه إلى الوراء – رغم زجر أبيه – وتمنى لو أن لديه بالبيت مثل هذا العدد من القطط مختلفة الألوان

والأحجـــام! ! !.. بينما راح الفران يمصمص شـــفتيه مســـتحلبا قطعة الأفيون تحت ضرسه المنخور.. شاعرا بالزهو.. إذ تعدت الطوابير بنى البشر.. لتشمل كذلك بنىالقطط! ! !

عمال الملاحات العائدون من وردية المساء – وحدهم – صبغوا الأمر بصبغة واقعية؛ إذ أتفقوا فيما بينهم على أن القطط – وهى الحيوانـــات الأليفة – قد وحدت صفوفها أخيرا.. وكونت نقابة للدفاع عن حقوقها المهضومة فى عالم يتسيده البشر والكلاب! ! حتـــى إن أحدهم – وقد اشـــتهر بينهم بأفكاره العمالية الجريئة – أخـــذ يصيـــح مكورا قبضتـــه.. ضاربا بها الهـــواء بينما يمرق بدراجته: يا قطط العالم اتحدوا! ! !

فى حين لم يثر الأمر حفيظة الشحاذ العجوز؛ ما دام الشاب الذى يقود الســـرب لا يعتدى على دائرة شـــحاذته الممتدة أمام الباب الرئيســـى لمحطة السكة الحديد.. من شارع (محمد على) حتى ميدان (الشهداء)! !

ولم يبد صاحب عربة الترمس أية دهشة.. معتقدا أن الشاب إنما يقوم بترويض تلك القطط لتعمل للعشاق والمصطافين (عجين الفلاحـــة) مثله فى ذلـــك مثل القرداتى.. وذلك فى المســـتطيل

الممتـــد ما بين رصيف الميناء شـــرقا.. وميدان (القواقع) غربا.. وما بين بوغاز الصيد وقاعدة تمثال (ديليســـبيس) فى الشـــمال.. وبيت القنصل الإيطالى والفنار فى الجنوب!!

لكـــن والحقيقـــة تقال.. فقد بـــذل الكثيرون مـــن رواد مقهى (الفـــلاح).. وركن (الشيشـــة) مجهـــودا غير عـــادى فى تقصى الحقيقـــة التى كانت تغيب ثم تنجلى وســـط ســـحب من دخان (المعسل) وصياح النادل وأبواق السيارات المارقة؛ مما جعل من المتعذر عليهم.. داخل هذا الغشاء الضبابى.. أن يواصلوا إعمال فكرهم المشتت.. ما بين الموكب من ناحية.. وبين أوراق اللعب وأدوار (الطاولة) المستمرة بدون توقف..!!

اثنـــان؛ أخـــذا الموضوع بحزم.. رئيس العمـــال (بجراج عبد ربه).. إذ أدرك على الفور خطورة الموقف.. فراح ينهر الشـــاب الأصلع.. ويهش القطط راشـــا إياها بغسيل السيارات.. حتى لا يعطلوا الحركـــة.. من وإلى .. منافذ (الجـــراج)!.. وثانيهما.. شرطى المرور السمين ذو الشارب الكث والوجه المنتفخ؛ إذ كان يهيمن على المرور.. فى ذلك المكان الحيوى من وسط المدينة؛ فقد وجد نفسه مضطرا للنزول من برجه الحجرى ذى الدرجات

الحلزونية.. لكى يضمن انسياب المررو فى تلك البقعة!

والمدهش فى حقيقة الأمر.. أنه.. ولأول مرة خلال سنوات عمله الثلاثين.. يتذكر القاعدة الذهبية للمرور.. بأن الأولوية للمشاة..؛ وعلى الرغم من زعيق السيارات الآتية من الأتجاهات الأربعة فقد كان عليه أن يصم أذنيه كل مرة. .وينظم مرور الموكب أولا!

وإذ تعبر آخر قطة فى السرب خط المشاة.. كان عندئذ – فقط – يفتح الإشارة بكلتا يديه.. وفى الاتجاهين المضادين.. بينما يكون جسمه كله وعيناه ما يزالان متجهين صوب مؤخرة السرب.. للتأكد من سلامة المشاة.. ومن أن كل شىء تمام!!

أما عمال النظافة.. فقد تركزت مهمتهم فى تنظيف الشارع من أية فضلات قد تتخلف عن الموكب بنفس الهدوء والرتابة المعتادين!

بعد ذلك.. لم يعرف أحد كيف سرت الشائعة فى المدينة بأسرها فى فترة قصيرة.. حتى بات يعرف بأمر الشاب وقططه العجيبة كل طفل وشاب وعجوز؛ ويتناقل نوادرها الغريبة كل قاص ودان!! هذا على الرغم من أن عسكرى الداورية لم يذكرها

إلا لزميله عند تسليمه الدرك! وعمال (الجراج) لم ينقلوها إلا لأصحاب السيارات عند مجيئهم لاستلام أو إيداع سياراتهم!! وبائع الترمس لم يذكرها إلا لزوجته وأختها!!! ورواد المقهى لم يحكوها إلا لزملائهم فى الدواوين!! وعمال النظافة لم يتحدثوا بها إلا لزملائهم فى الدواوين!! وعمال النظافة لم يتحدثوا بها إلا لرئيس الوردية!! و(أبو عادل) الفران لم يسر بها إلا إلى (أم عادل)!!! والعاملين بالملاحات لم يرووها إلا لرفاقهم فى اللجنة النقابية!!! وسائق التاكسى لم يخبر بها إلا الراكب الجالس إلى جواره!

أما شرطى الإشارة.. فقد كتب عنها تقريرا.. يسرد فيه ما يضطلع به حيالها كل مرة من أعباء إضافية لتنظيم انسياب المرور.. طمعا فى الترقية!!.. حتى الطفل.. لم ينبس شفة إلا لزملائه فى الفصل!!!. فى حين كتب الشاعر عنها قصيدة.. قرأها على رفاقه فى النادى.. فاتهموه بالاغراق فى الرمز والغموض!!!.. هذا.. بينما ظل الشحاذ؛ والكلب؛ والسحلية.. مكتفين بمراقبة الموقف برمته عن كثب.. منتظرين تطورات أخرى للأحداث!!!

ومع كل ذلك.. فقد سـرت الشـائعة فى المدينة مسرى النار فى الهشـيم!!! بل تعدتها عبر المنافذ الجمركية – على الرغم من شدة الإجراءات بها – إلى سائر المدن المجاورة!!!

والأغرب من هذا كله.. أن الشـاب وسـربه القططى لم يكونا على علم بمـا أثاراه فى المدينة من أقاويل!! بل كانا يواصلان السـير فى طريقهما المعهود؛ لا يكادان يعيران للأعين المتطلعة فى فضول ودهشة أدنى التفات!!! بل كانا على يقين من أن هذا أمر عادى للغاية؛ ولا غرابة فيه على الإطلاق! مجرد إنسـان؛ يسـير فى الشوارع على قدميه؛ لا يضايق أحدا؛ لا يعتدى على الحرمـات؛ لا يتطفـل؛ ولا يتكفف الناس...! ومجرد سـرب مـن القطـط؛ يمكن أن نرى مثلها تحت سـلالم بيوتنا؛ أو فوق أسطحها؛ أو فى الخرائب المتناثرة هنا وهناك؛ أو فى صناديق القمامة؛ أو أمام المطاعم؛ أو محال الجزارة!!

ومـا من أحد تسـاءل. .إلى أين يذهب هـو وفصيله بعد كل هذا التطواف صباح مسـاء!؟ ما من واحد حك رأسه ليعرف أين يقيم!؟ كيف يعيش؟! ولماذا يظل سائرا دون التفات؟!!

واحدة فقط.. ! هى التى سألت..؛ ورغم أنها لم تجد إجابة

فقــد تبعته ظنا منها أنه بصمته هذا إنما يقول لها : (اتبعينى.. وســوف تصلين إلى المكان الذى تريدين)!! جاءت تلك المرأة الريفية العجوز مع ابنها؛ ليبتاعا لعروسه ملابس الزفاف؛ فلما فقدت أثره فى الزحام.. هداها تفكيرها – بعد أن سألت كل من فى السوق؛ وأعطت أوصافه لكل من صادفوها من باعة ومشترين – هداها تفكيرها بعد طول مشقة أن تنتظره فى المحطة.. وأمام شــريط القطار! حتى لو غاب عنها دهرا فحتما سوف ينتهى به المطاف إلى المحطة وشريط القطار!!

ســألت الشــاب.. ومن ثم تخيلت أنه أشار إليها أن تتبعه.. فتبعتــه هــو وقططه؛ عــرج من شــارع (الثلاثينى) إلى شــارع (كســرى) مارا بميدان (المنشــية) فتبعته.. انحدر من (كسرى) إلى (باب ســبعة).. حيــث يزدحم التقاطــع – على الرغم من اتســاعه بالمقطورات الضخمة التى تتراص على جانبى الطريق صفــا طويلا محملــة بالحاويات؛ خارجة مــن الميناء أو داخلة إليــه؛ بينما يجتهد أحد الرجال فى تنظيم دخولها وخروجها؛ مشــيرا لإحداهــا أن تتقدم فينتظــر الصف كلــه؛ وهكذا حتى تنتهى الحركة؛ ويتم تحميل المقطورات بالبضائع التى حملتها

السفن؛ والتى تقوم (الأوناش) العملاقة بتفريغها على الرصيف لكى تلتقطها (الشوكة) – وهى عبارة عن (ونش) صغير خفيف الحركة يقوده رجل صغير خفيف الحركة كذلك – تلتقطها.. وتمرق فى خفة لتضعها واحدة أثر الأخرى على ظهر المقطورة التى تكون قد أخذت دورها! والمتابع لهذه الحركة كان يدرك أنها لم تكن لتنتهى أبدا!!!

وسط هذا الخضم.. سار الركب – الشاب.. والسبع قطط.. ثم الريفية العجوز.. بطرحة رأسها وثوبها الفلاحى السوداوين –.. وكانت الفلاحة.. رغم كبر سنها.. وضعف بصرها البين.. تبدى خفة متناهية فى الحركة.. حتى إن أحدا من عمال الشحن والتفريغ.. أو سائقى المقطورات الضخمة.. لم يشعر بالشاب.. ولا بقططه.. أو بالريفية العجوز.. أثناء عبورهم.. قادمين من ميدان (الشهداء).. مارين (بباب سبعة).. متجهين صوب (الدريسة) – وهى مجموعة من البيوت الصفيحية المتلاصقة.. المجاورة لشريط السكة الحديد المهجور.. حيث توجد عربة واحدة صغيرة ذات عجلات حديدية.. كانت تستعمل فى الماضى لإصلاح العربات المعطلة.. يندفع فوقها أحيانا عمال

السكة الحديدية بمعاولهم المدببة وملابسهم الزرقاء الكالحة.. لكى يصلحوا (فلنكات) أحد القضبان!

فى أحد أطراف هذا المكان الممتلىء بالحجارة الصغيرة.. وقطع الحديد المتخلفة عن عربات أحيلت إلى التقاعد.. يوجد منزل حجرى يتوسط حديقة لا تخفى خضرتها على الرائى.. هذا البيت الوحيد بحديقته الغناء... والذى يوحى تفرده بأنه شبه مهجور؛ كان فى الماضى استراحة لناظر المحطة الفرنسى وأسرته؛ واليوم يسكنه عامل عجوز بعد إحالته إلى التقاعد! تعيش معه ابنته المطلقة؛ وعدد لا يحصى من السحالى؛ وكلب صغير شرس..! وعلى الرغم من تهالك الجدران؛ واختفاء اللون الأصلى للطلاء؛ وذبول معظم الزهور فى الحديقة.. فلم يكن ليخفى على العين أن للبيت تاريخا يزخر بالعز والرخاء!!

لم يكن الشاب حتى هذه اللحظة مدركا لوجود العجوز الريفية فى إثره هو وقطته؛ أما هى فقد اكتشفت أثناء تتبعها إياه أنها تسير على شريط السكة الحديدية الذى كانت تبحث عنه؛ فتوقفت؛ ثم التفتت يمنة ويسرة؛ ومن ثم اتجهت إلى المحطة داخلة لا من بابها وإنما من فتحة فى السور الخلفى المتداعى!

أما هو وفريقه فقد راحا يشقان طريقهما عبر الحصى؛ والرمال؛ وقطع الحديد؛ و(الفلنكات)؛ والعربات المكتسية بطبقة سميكة من الصدأ وقد انكفأت على ظهرها.. إلى حيث يقبع البيت الحجرى العتيق ساكنا لا ينم عن وجود مخلوقات بشرية!

فى المرة الأولى.. كانت مجرد مصادفة؛ إذ كان يسير كعهده مارا أمام (باب سبعة)؛ فإذا بالمرور قد أغلق الطريق تماما؛ ولأنه لم يكن يعرف النكوص على عقبيه فقد استمر متقدما؛ ولكن بعد أن اتخذ زاوية قليلة الانفراج أبعدته عن الطريق والمرور؛ فقد وجد من الأسهل أن يخترق هذه الأكواخ الصفيحية؛ ثم يجد طريقا ترابية ملتفة كالثعبان؛ تصير به على رأس شارع (محمد على) عند المدخل الجنوبى للمدينة!

لكنه هذه المرة وما إن صار على قيد خطوات من ذلك البيت شبه المهجور؛ حتى باغته الكلب الشرس مكشرا عن أنيابه؛ لم يكن يقصده هو؛ بل كان يريد الفتك بالقطط؛ نشبت المعركة؛ وإذا به محاصر وسط الميدان؛ تحتمى القطط بساقيه؛ فينقض عليها الكلب؛ ثم يتراجع؛ فتكر عليه القطط؛ وما بين الكر والفر ألفى سرواله ممزقا؛ بينما بانت فخذاه؛ وأخذ الدم يقطر

من كل بوصة فى ساقيه الطويلتين؛ ويسيل على الحصى راسما خطا قانيا!!

لم يكن هذا الأمر ليشغله عن بغيته لولا أن انفتح باب البيت على حين غرة، وأطلت؛ كانت فى حوالى الخامسة أو السابعة والعشـرين؛ ممشـوقة القد؛ بيد أن ما شده إليها فى واقع الأمر ذلـك الصفاء النقى فى عينيها؛ عينان كأنما اغتسـلتا فى أنهار الجنة ؛ يطل من أعماقهما حزن هادىء؛ رغم ما يكسو بشرتها البيضاء من صلابة رسمت بين الحاجبين تقطيبة ما تكاد تختفى حتى تعاود الظهور.

فتحت الباب على مصراعيه؛ وأسرعت تهش الكلب وتزجره؛ واقفة بينه وبين الشـاب الجريـح وقططه! وبينما كانت كلمات الأسف والتسرية تتدفق من بين شفتيها فى خفة مثل سرب من العصافير الرقيقة؛ راحت بلمسـة حانية من يدها الرطبة تدخل (حسن) إلى البيت؛ بينما انشغلت القطط مع الكلب فى الخارج فى عتاب تتخلله بين الحين والآخر همهمة من القطط أو تكشيرة من الكلب!!!

لم يدر كيف انسـاق خلفهـا كالمنوم.. وأخـذ يطيعها دون

اعتراض! تعال.. فيأتى؛ أدخـــل.. فيدخل؛ اجلس.. فيجلس علـــى أريكة فـــى الصالة؛ اخلع هـــذا الســـروال.. فيخلع؛ مد ساقيك.. فيمد!! ضمدت جراحه فكأنما كانت تضمد فى صدره جرحـــا أعمق.. غائرا فى القلب! شـــعر براحة أنســـته أن عليه أن يواصل طريقه بلا توقف! وجد نفســـه يتوقف لأول مرة منذ أعوام! شـــعر بأنفاســـه تخرج من صدره وتدخـــل إليه ولم يكن يشعر من قبل! أبصر عينيه تنظران فيما حوله ولم تكونا تنظران إلا إلى الأمام مخترقة الناس والأشـــياء! ظل يمشى سواد عمره؛ طيلة الليل والنهار! تتبعه سبع قطط أينما سار! فما باله يتوقف الآن!؟ وكأن قوة خفية قد هدهدت فى صدره تحفزه الدائم؛ فقد شعر بميل حقيقى إلى أن ينام!!!.. وكان بالفعل قد تمدد على الأريكة بكل جسده.. ونام!!

الفصل الرابع

الأب..

أعرف أنك قد فقدت السمع؛ ولكن لا حيلة لى ؛ لا أحد سواك أحكى له؛ حتى عيناك؛ تضاءل النور فيهما فلم تعد ترانى إلا بالكاد؛ مع هذا فأنت لا تزال تشعر بى؛ تحس بما يعتمل فى صدرى؛ فأنا منك وأنت منى؛ وكأننى أحكى لنفسى بصوت عال.. نعم.. لا أعرف يا أبى.. كيف انفتح قلبى له!؟ أشفقت عليه فى البدء؛ ثم أحسست تجاهه بأمومة؛ رغم أنه يكبرنى ببضع سنوات!! رأيت شيئا بداخلى يتجاوب مع الحزن الساكن فى أغوار عينيه! لم يأسرنى طوله الفارع أو مظهره الرجولى.. فلقد كان طليقى فارعا عريضا كالجدار؛ لكنه كان جدارا صلبا قاسيا! لم أشعر معه مرة بالحنان.. أو الأمان!!

ضمدت جراحه؛ فسكنت ملامحه؛ ثم نام متمددا على الأريكة؛ ترى من هو؟! من أين جاء؟! وإلى أين يذهب!؟ وما سر قططه السبع!!؟ وماذا يخفى حزنه وصمته!!؟ لن أدعه

يذهب حتى نغتسل معا فى بحر المكاشفة... فأنا على يقين من أن حزنــه وحزنى توأمــان؛ افترق أحدهما عن الآخر زمنا؛ وآن لهما اليوم أن يلتقيا!!!

آه يا أبى لو تســبر عمق إحساسى الآن!! أشعر أنى انتظرت هذا الشــاب الغامض ســنوات وســنوات! كأننى وإياه كنا على موعــد!! فالقلــوب لا تلتقى إلا فى الوقــت الملائم!! لو كنت عرفته قبل عشــر ســنوات!! لهربت الأحزان مــن طريقى إلى الأبد!!! كنــت طفلتك المدللة.. تتأرجــح ضفائرى فى الهواء بينمــا أركض نحوك؛ تضمنى بين ذراعيك الحانيتين؛ تســوى ثيابى ذات (الكرانيش)؛ وتعيد ترتيب الشــرائط الملونة بشعرى الطويل الفاحم...؛ لماذا يا أبى لم يأت إلى دنياى مقتحما هذا الوجود البرىء..!؟ بكل ما فى شبابه من رقة وأسى حبيب!؟

أتظنــه جــاء اليوم على غيــر موعد!؟ ليعتذر عمــا تناثر من وجودى أشلاء أثر تجربتى الأولى!!؟ لن أحملك ذنبى الآن.. ما فات قد فات.. وأنت أبى الذى لم أحب فى الدنيا إنســانا أكثر منه! أعرف أنــك تورطت فى قبول ذلك الرجل زوجا لابنتك.. ولنفس الســبب الذى ما زلت وســأظل أحبك من أجله.. طيبة قلبك!!

أنا الأخرى.. لم أشأ أن أقلل من قدرك بين الرجال.. وجدتنى أرضى بالرجل الذى لم أشعر نحوه بعاطفة! تزوجته لأنك أعطيت كلمة؛ ولأنه أظهر فى بادىء الأمر ميلا شديدا تجاهى؛ وفرش لى قصور الخيال... وكانت النتيجة كما تعرف.. زواجا لم يستمر أكثر من ستة شهور.. وجنينا نزل ميتا.. وأحلاما منهارة.. وقلبا تحطم.. وورقة طلاق!!!

وكما دفنت وليدى الذى مات قبل الأوان؛ رحت أوارى شبابى التراب؛ وأخنق مشاعرى بحبال النسيان!! صار همى كله أن أرعى شيخوختك. أيها الأب الطيب!! لا تحزن فأنا لست حزينة.. أنا أقوى من ذى قبل؛ وها أنذا أختار بملء إرادتى.. وأعلن أمامك أنى أحببت هذا الشاب الغريب.. الملتف بالسحر والغموض؛ والحزن والجنون؛ وبالحب والحاجة إلى الحنان! ليس ميلى نحوه هو الشفقة أو العطف؛ بل أشعر تجاهه بما لا أستطيع أن أصفه؛ إنه جزء من جسدى؛ نصف روحى التائهة؛ وبقية حياتى التى شردت فى بحر بلا شواطىء!!

إنه لا يملك فيما يبدو سوى قططه السبع اللائى يتبعنه كظله؛ وعينين مليئتين بمزيج من الحزن والحنان المفقود؛ وقلب يسع

العالــم! ! وهذا ما كنت أريده؛ ولم أجده عند طليقى.. فقد كان لديــه مال كثير؛ يحصل عليه من تجارة الملابس المســتعملة؛ وتهريبها بعد تنظيفها بالبخار!

أتحرق شــوقا إلــى ذلك الفقر البســيط المكتنز بالحب؛ قدر مــا أصبحت أبغض الغنــى المتعجرف الجاف؛ لقد كان زوجى يعاملنى كثوب مستعمل.. يضعه فى المغسلة؛ فأشعر بكيانى كله يدور إذ يعتصرنى؛ ثم يجففنى؛ ويتباهى بى فى الســوق؛ تماما مثلما (يكرمــش) متعمدا الثياب ليخدع موظفــى الجمارك أثناء تهريبها! عشت معه كالخرقة! يعود آخر الليل؛ يضغط جسدى بجســده اللزج الثقيل؛ يكاد يزهق أنفاسى؛ أنبطح على وجهى لكــى لا أرى وجه الحيوان وهو ينهش لحمى ويقرقش عظامى؛ يتركنــى خرقة مبتلة بنتن عرقه؛ أســبح وحدى فى مســتنقع الضيــاع؛ والألم؛ والغثيان! ! ســرعان ما يعلو شــخيره الطافح برائحة التبغ والحشــيش.. والرغبة الحيوانية وقد أشــبعت! ! أبقى حتى أول ضوء أتقلب على فراش الشــوك الذى لا يخفف من وخزه (النايلون) وقد أغرقنى به من الداخل والخارج! يصحو متأخرا؛ ينتهى من إفطاره الذى أعددت؛ يلقى بمصروف اليوم؛

ويخرج دون كلمة واحدة؛ ومنذ متى يتكلم الرجال إلى خرقة قد اعتصرت باسم الزوجية!؟

لست أقسو عليك بذكر الماضى؛ لقد صحوت منه كما يصحو النائـم من كابوس! وما زلت أرتعـد! وليس لى من حضن ألوذ به سـواك.. هل تعرف يا أبى؟ لو طلبوا نصف عمرى مقابل أن ترتـد قويا لمـا بخلت!! وها أنذا أنذر عمـرى كله فداءك؛ أنا عصـاك التى عليها تتوكأ؛ وأنا أذنك التى بها تسـمع؛ وعينك التـى بها ترى؛ ولسـانك الذى به تتكلم بعـد أن أصابك الزمن فـى هذه الجوارح!! ها أنت تربت علـى كتفى بيدك الوحيدة التى لم يصيبها الشـلل؛ فأنت تشعر بى وبما يعتمل داخلى من أحاسـيس!!! لهذا لم أرك تبدى بادرة اعتراض على استضافة ذلك الشاب المسكين إذ ساقته قدماه إلى بيتنا الصغير!!

لمحت فى أسـاريرك ما يشـى بارتياحك إليـه؛ ولكن هل يزعجك صمته وغموضه!؟ أنا نفسـى أتسـاءل وقد تكرر تردده علينـا! لماذا لا يتكلم!؟ ومتى يبوح!؟ كنت أحسـبه سـيفتح مغاليق أسـراره إذا ما عاود المجىء؛ لكنه خيب ظنى المرة تلو الأخـرى!! إنه لا يجيب على أسـئلتى إليـه إلا بمقدار.. هل

أنت جائع؟.. نعم!.. ؛ ما بك؟! .. لا شيء!..؛ ما اسمك؟.. حسـن!!!...، وظللت أؤجل سؤالا يعتمل فى صدرى عن السر الذى يخفيه!!! وبدلا منه رحت أسـأل نفسـى: لماذا استراح كل منا إلى الآخر!؟ وهل هذا هو الحب!؟ وان لم يكن فما اسم ذلك الشعور الذى يتغلغل فى روحى كلما رأيته؛ أو لمست يده؛ أو حاولت مداعبة مشاعره الحزينة...؟؟؟ بل لماذا يستسلم هكذا لفضولـى!؟ ولم لا يصدنى؟! وما الذى يشـده إلى بيتنا فى كل مرة!؟؟

هل اسـتهواه الحنان!؟ أم الجمـال؟! أم جذبه الأمان؟؟؟! كـدت أصارحه ذات مرة: أنت لسـت بمجنون! فكل ما رأيته منـك لا يوحى بذلـك!!..؛ يداك؛ نظراتـك؛ خلجات فمك؛ نبضات قلبك..!!

إن كان هذا هو الجنون فتعساً للعقل ومرحى بجنونك الرائع! ذلـك الذى أيقظنى من رقادى الطويل؛ فتفتحت مسـامى دفعة واحدة؛ كما تتفتح الأرض الجدبة تحت وقع المطر!!

أبدا لم أسـأله؛ ولم أسـأل نفسـى... إلى أين يقودنى ذلك الإحسـاس الجارف؟! كنت أسـتطيع أن أثور ولـو مرة واحدة

قائلة له: اخرج من هذا البيت! أنت تغلق قلبك على سـر أبقى منى ومن حبى! فلماذا تشـدنى معك إلى القرار!؟ وكيف تحكم قبضتك حولى وأنت الذى بطول صمتك حتى لأظن أنك لن تنطق أبدا!!؟

ترى مـا وراء الغموض الذى يلفك بعباءته!؟ أوشـك أحيانا أن أصـدق ما يحكيه الناس.. من أنك على صلة بالكائنات التى تعيـش تحت الأرض!! صمتك الدائم يؤكد هذا الشـك! قططك الغريبة! والألفة العجيبة بينكما! إنها تفهم نظراتك.. إيماءاتك.. بينكما لغة لا يعرفها البشـر! غيابك المتكرر الذى يطول يوما.. وأحيانـا يوميـن أو ثلاثة؛ قالوا إنك تعاشـر واحـدة من بنات الجان!! فلماذا تربطنى بك!؟ هل أختلط عليك الأمر؟! أم إننى شـبيهتها الأرضية!؟ وهل اشترطت عليك ألا تبوح بسرك لأحد من الإنس وإلا آذتك!؟ تعود من غيابك كالممسوس! ترتعد! تنام نوما عميقا لا يقطعه سـوى تفوهـك بألفاظ لا أتبين لها مغزى! تبـدو خائر القوى فإذا ما أفقت مـن نومتك المعتادة عادت كل عضلة فى جسـمك تنضج بقوة لا أظن رجلا يمتلكها؛ أطير على أجنحة الحب المحلق فى سـماء تزخـر بالأحلام التى لم يرها

بشــر! وأســمع أصواتا تختلط فيها أصداء البحر ووشوشاته مع غضب الريح وســكناتها! يتمازج فيها اللــون والصوت امتزاجا يفصلنــى عما حولى! فــلا أرى إلا وجهك؛ فأظل أغوص تارة؛ وأحلق تارة أخرى! وتتشــكل أجزائــى من جديد فى وجودك؛ فما أبدع تشكيلك!!

لســت بشرا؛ فالبشر يجوعون ويطلبون الطعام؛ بينما أذكرك به دائما! والبشر يطفئون غرائزهم؛ وأنت كتلة من الوهج لا تُطفأ ولا تنطفىء؛ بل تزداد توهجا كلما اقتربت منها! إنها لا تحرق بل تتغلغل فــى العظام! وتوغل فى اللحــم والجلد والأطراف! تحيىموات الروح؛ وتشــفى علل الجســد! تطهــر ولا تدنس! فكيف تكون انســانا عاديا!؟ من أنت إذن أيها الغارق فى بحار صمتك!؟ أضنيتنى بالصمت فانطلق!!

نعــم يا أبى لم أســأله أبدا عن شــىء من هــذا!!! ترى ما الذى ألجم لســانى؟! هل أغرقنى فى دوامته فبت لا يهمنى من الحبيب ســوى انتظار طيفه!؟ أسألك أنت يا أبى أن تسدى لى النصيحة! أعرف أن لسانك يعجز؛ وأن سمعك قد وهن؛ لكنك تشــعر بى وهذا هو الأهــم!! هل أنا مخطئــة؟! أراك تواقفنى

الرأى! فأنت لم تشــح عنى بوجهك؛ ويدك ما تزال تربت على ظهرى؛ وأنا أقدر لك هذا!!

يــوم أقعدك الداء قالوا لى فى المستشــفى: دلكيه؛ وها أنذا ما زلت أدلك يوميا يديك؛ وســاقيك؛ وظهرك؛ صحيح أنك لا تتحســن فى التو؛ لكن وجهك ينبؤنى بالراحة التى تسرى فى كيانــك إذ ما أقــوم بتدليكك؛ ومن قلبك الطيب يشــرق الحب فــى داخلى؛ فينعكس على كل شــىء! أنت علمتنى ذلك دون أن تقصد؛ علمتنى أن الحب بلســم لكل الجراح؛ وبدونه يكون الموت! لهذا لن أتخلى أبدا عنك؛ وسأظل إلى جوارك يحدونى الأمل فى أن يعود الماضى الجميل وقد طواه الزمن تحت أردية المرض؛ والعوز؛ والاستسلام للطامعين!!!

الفصل الخامس

الابنة

أسـميتك (نصرة)؛ إذ رزقنا بك تحت قصف العدوان؛ فكان مولدك بشـير النصر! ! كانت طائرات العدو تضرب المدينة بلا رحمة؛ حتى إن إحدى القذائف المباشرة قد دمرت شريط القطار وجـزءا كبيرا من المحطة؛ وما زالت العربات المدمرة؛ وسـور المحطـة الخلفـى المهدم؛ والقضبان المهجورة شـاهدا على ما أصاب المدينة!

تمـت ولادتـك فى صمـت؛ غطى صوت القصـف على كل شـىء؛ ليلتها.. ركضت تحت القصف؛ وسـط الخرائب؛ فى ظلام الغارات؛ أتعثر حينا؛ وأنهض حينا آخر؛ لكى أصل إلى القابلة التى تسـكن فى كوخ من أكواخ الصيادين المتهالكة على ضفـة البحيرة؛ كانت مخاطرة! فالعدو قد أنزل رجال المظلات بأسـلحتهم فى المنطقة الواقعـة ما بين البحيرة والمحطة؛ صار

لزامـا علـى أن أتخفى خلف كل جـدار؛ وأن أمشـى أحيانا علـى أربع ؛ بل لقـد زحفت على بطنى قرابـة الكيلومتر؛ فقد كنت أراهـم يتمركزون فى البقعة التى كانت فيما مضى (القنال الداخلى) – وكانت تتفرع من مجرى القناة الرئيسـى لتستخدم مرَسْـىً احتياطيا للسـفن حيث تتراص على شاطئيها المخازن وورش الإصلاح وساحات تشوين الغلال – كنت أسمعهم يرطنون بالانجليزية حينا أو بالفرنسـية حينا آخـر وكنت قد تعلمتهما خلال عملى مع نظار المحطة الأجانب قبل الحرب ! !

عنـد عودتى بالقابلة؛ لم يكن ثمة مفر من الاختباء لفترة فى المطحـن القديم حتى يهدأ القصـف؛ لكنه لم يهدأ؛ فخاطرت ومعى القابلة العجوز وإذا بقذيفة تسقط على أحد جدران المطحن فينهار؛ أحسسـت بقضيب ثقيل من الصلب يسـقط على أسفل ظهرى؛ لم أشـعر بأى ألم؛ خيل إلى أن خطواتى ثقلت بعض الشـىء؛ ربما من كثرة الزحـف والركض؛ لم يكن أمامى وقتها سوى أن أسرع بالعودة عبر أرض (الجولف) التى تمركزت فيها قـوات العدو فى اليوم التالى؛ مصطحبا معى العجوز التى كنت

أكاد أحملهـــا من هـــول ما امتلأت به من رعب كاد يعجزها عن الحركة.

وجئتِ أنتِ قبيل شـــروق الشمس؛ التى ما أن أشرقت حتى كان الصمت والدخان يلفـــان المدينة؛ وقد تحولت فى معظمها إلى أنقاض!!!

لم أكن قد أســـميتك بعد، فالحياة نفســـها تختنق؛ ومكاتب الصحة؛ والمستشفيات؛ تحولت إلى ملاجىء؛ ومواقع يتمركز فيها رجال الدفاع المدنى؛ والمقاومة الشـــعبية؛ بينما ازدحمت الأَسِـــرّة والردهات بالجرحى من المدنيين والعســـكريين!! أما القتلى فقد بـــذل رجال الدفاع المدنى والأهالى جهدا خارقا فى استخراج جثثهم من تحت الأنقاض؛ ودفنهم جماعيا فى الأرض الواقعـــة عند التقاء القناة بالبحـــر والتى أصبحت اليوم حديقة؛ وفندقـــا ســـياحيا؛ ومركزا لتجارة الســـلع المســـتوردة؛ ومتحفا للآثار!

هكـــذا إذن؛ كانت الحرب؛ وصمـــود المقاومة؛ وحدهما هما اللذان أمليا علينا اســـمك، وكانت أمك وقد أوهنها الربو المزمن

تخشـــى عليك من النســـمة؛ ومن البرد؛ كانـــت تدثرك بغطائنا الأوحد فى ذلك الشـــتاء الذى هطلت فيه السماء نارا؛ ودخانا؛ وجنود مظلات؛ لا أمطارا فحسب!!

كانت النـــوة تأتى من جهة البحر ومعهـــا قذائف المدمرات المعتدية؛ تلك التى أكلت حى (المناخ) عن آخره، وفى النهاية استســـلم العدو أمام صمود الرجال؛ واستســـلمت أمك المسكينة أمام المرض الذى ظل ســـنينا يجثم على أنفاســـها كالغول؛ كان شـــتاء عصبيا فقدنا فيه تلك المرأة الطيبـــة؛ وتركتك فى رعاية إحدى الجارات حتى أنهيت مراسم دفنها فى قرية أهلها؛ تلك التى تقبع فوق جزيرة تتوســـط البحيـــرة؛ يعيش بها عدد قليل من أسر الصيادين؛ وعدد أقل من الماشية – يعيشون معا – فى أكواخ من البوص! سمعت ذات مرة أن هذه الجزيرة كانت فيما مضى هى حاضرة الســـاحل؛ وكان أجدادنا الفراعين يعيشـــون فيها؛ ومنها يديرون شئون البر؛ وكان اسمها وقتئذ «تنيس».

كانت امرأة ذات جَلَدْ؛ وأشـــهد أنهـــا رغم الداء كانت قوية فارعة الطول؛ صاحبة رأى وأنفة فى الحق؛ ومفعمة بالكبرياء!

وربما أكون قد حكيت لك من قبل أنها كانت قد تزوجت برجل آخــر؛ قبل أن نلتقى مصادفة عند أخ لها يترزق من نقل الناس فى (لنش) بين القرى والمدن التى تحيط بالبحيرة!

ولعلــى أعلمتــك كذلــك ذات يوم أن لك أخــا – من أمك – يكبرك بنحو ثمانى ســنوات؛ أستاثر به أبوه السكير عنوة حين انفصل عن أمك، ولما كبر ذهب خالك فى إحدى المرات يطلب رؤية ابن أخته؛ فراعه أنه قد ترك بيت أبيه منذ عام أو يزيد؛ ولا يعرف أحد له أثرا!!!

والآن يــا ابنتى الحبيبة وقد بلغ منــى الكبر والعجز مبلغه؛ وصرت على شفا الموت؛ أريدك ألا تنسى أن لك أخا!! أعرف أنك صرت تفهميننى بالإشارة؛ والإيماءة؛ بل لعلك الآن تفسرين ما أريد قوله بمجرد النظر إلى ملامح وجهى العجوز!!!

ومــا أريد قوله الآن يفوق طاقة الإنســان العاجز عن التعبير؛ فهل تســبرين اليوم أغوار ملامحى؛ وتدركين حقا ما لا أقدر أن أبثك إياه من الظنون؛ والمخاوف؛ التى تكاد تصل فى حدســى إلى حدود اليقين!!؟

أريــد أن أحدثك عــن هذا الشــاب الغريب؛ الــذى اقتحم عالمنــا الصغير! هل تدركين مغــزى عدم اعتراضى على زياراته المتكررة!؟ ووجوده معنا الســاعات الطوال!؟ بل ونومه أحيانا بيننــا؟!! أكاد أقــول أنى الآن أعرف!!! لقد طبعت الســنين فى داخلى من البصمات ما يؤهلنى لأن أؤكد أن هذا الشــاب.. بملامحه؛ بســنوات عمــره؛ بارتياحنا معا إلــى وجوده؛ بعدم تضجــرى منه رغم غرابته؛ هذا الشــاب يا (نصــرة) هو بعينه أخوكِ الذى لم ترى.. بل لم أره أنا من قبل!!

فقط.. لو يتكلم!! وقتها ستعرفين بنفسك ما أدركته بحدسى! إن حبــك له ليس نابعا من فراغ!! وتعلقك بأهداب الســاعات والدقائــق التى يمكث خلالها صامتا؛ أو ذاهلا؛ أو نائما إن هو إلا خيوط العاطفة التى نسجتها آصرة الدم دون أن يدرك أحدكما السبب!!

لقد صرت مثلك أنتظر مقدمه؛ وأشــعر بالقلق إذا ما غاب!! فلو صدق حدسى – وإنه لصادق – فسوف يكون الإنسان الوحيد فى العالم الذى ســيتبقى لك بعد رحيلى الذى أوشك!! لم يعد

لك من أحد ســواه!! وأنا الآن أدعوك أن تتشبثى به أكثر! وأن تصبرى عليه حتى ينطلق لسانه من عقاله!! عندئذ.. سينكشف المستور؛ وتشرق شمسكما معا فى عتمة الأحزان!!!

•••

الفصل السادس

حسن... يتكلم

لماذا تتهمنى نظراتكم بالخرس؟! قضيت ثلاثة أرباع عمرى أتكلم فلم يهتم أحد بكلامى!! سألت أبى عن أمى؛ أخبرنى أنها ماتت؛ فلما طلبت رؤية قبرها لم يعرنى التفاتا! كررت الطلب المرة تلو الأخرى؛ لم أجد منه إلا الزجر والوعيد!! فصمتت!!!

كنت أطالب الصيادين حين أعاونهم فى جذب الشباك بحصتى العادلة؛ لا يلتفتون إلى مطلبى! أعيد عليهم مطلبى العادل مرات ومرات؛ لا أجد نتيجة مشجعة؛ ألوذ بالصمت!!

رحت أبحث عن عمل فى الميناء؛ أو فى (التجارى)؛ أو فى سوق (الحميدى)؛ لا أجد إلا الإعراض؛ يئست؛ وعدت أسيرا للصمت!!!

رغما عنى لم أجد بدا من التسول لكى أعيش! رغيفا من الخبز؛ كوب شاى من المقهى؛ لفافة من عابر سبيل؛ كنت أطلب فيعطوننى أحيانا؛ ثم صرت أسألهم فلا يجيبون! ألحفت

وألححت؛ لم أجد لديهم صدى؛ تقوقعت؛ وللمرة الأخيرة داخل سرداب مظلم؛ طويل ليس لطوله نهاية؛ له أول وليس له آخر؛ اسمه الصمت!!... ثم تتهموننى بالصمت!؟

كما ترون؛ جربت كثيرا الكلام؛ فلم يُجْدِنى! وها أنذا أعدكم ألا أتكلم أبدا! فهل ستجيبوننى إذن إلى ما أريد!؟ هل تدلوننى على قبر أمى!!؟... مِن تجربتى معكم.. لا أظن!!!

القطـط لا تـأكل ثم تنكر كما يقـال؛ فضلا عـن أنها قليلة الكلام؛ مع ذلك لها قلوب تعمر بالحب؛ والوفاء! لهذا اصطفى كل منا الآخر رفيقا؛ كم هو عالم ساحر ذلك العالم القططى!!

قبل أن ألج بابه؛ كنت أسـمع أن للقطط سـبعة أرواح!! ما كنت أعرف السـبب! فلما ولجته؛ أيقنـت!! إياكم أن تمدوا أيديكـم بالأذى إلى قطة!! حتى لو حاولتـم قتلها؛ ورأيتموها أمامكـم تحتضر؛ سـتبعث من جديد؛ لتكمـل دورات حياتها الأرضية السبع!! إن لها فى كل أرض روحا وحياة! واحسبوها! سـتعرفون؛ وربما توقنون مثلى؛ لماذا تعود إلى الحياة مرة بعد الأخرى!؟.. أرض واحدة وحياة واحدة.. هذه حياتكم أنتم! أما القطط.. فلها فى كل أرض من الأرضين السـبع حياة.. هذا هو السر!!!

هــا أنذا أتكلم! وها أنتــم كدأبكم تُعْرِضُــون؛ بل وتتهمونى بالجنون! أعرف ذلك؛ وأعذركم؛ فليس من سمع كمن رأى!!! وأنا سمعت؛ ورأيت؛ وليتنى أستطيع أن أصارحكم أكثر!! لكنه العهــد الذى ارتبطت حياتى بمدى صونــى له!! حين اطلعت على ما لا عين رأت؛ ولا أذن ســمعت!! فلا تستدرجونى أكثر من ذلك! فلا زلت بشــرا مثلكم؛ ولا أملك ســوى حياة واحدة؛ ولن أفرط فيها حتى أعثر على قبر أمى؛ فهذا هو مغزى وجودى الوحيد!!! وآنئذ... لا أعرف ما إذا كنت سأوغل فى كشف ما غاب عنكم أم لا!!! هذا على كل حال سابق لأوانه!!!.

قد أستطيع وحسب أن أُلَمّح لكم – مجرد تلميح فقط – بما لا تدركــه عقولكم الأرضية! ألم يفاجأ أحدكم ذات مرة بقطة تتبعه أينمــا ذهب!؟ إذا أعطاها طعاما أبت! شــرابا رفضت! إنها لا تريد الطعام ولا الشراب! فأكلهم وشرابهم ليس كمثلنا!!

إنهــم يزهــدون فيما أعرضــه عليهــم؛ وعلــى العكس فقد كانــوا يجلبــون لى ما آكل وأشــرب..!! مــاذا يريدون إذن؟! لــن يســتطيعوا أبدا إدراك ما يريدون! كل مــا تقدرون عليه أن تهشــوهم! تنهروهم! تكسروا عظامهم الرقيقة بعصيكم أو تحت إطارات عرباتكم!!

كمـــا تـــرون؛ لا جدوى منكم – حتى مع القطط – ! ! أما أنا فقد حققت ســـبقا؛ فأى إنسان ربما سارت خلفه ذات مرة قطة واحـــدة! أما صاحبكم فقـــد تبعته أينما مضى ســـبع قطط دفعة واحدة! واحدة من كل أرض! رهط قوامه تسع وأربعون روحا! ! فيهـــن قطة واحدة من أرضكم؛ وحتى هذه القطة لا تأكل وتنكر مثل الكثيرين من البشر! ! !

هل ترونني قد تعديت حدودى؟! أنا لا أعرف! فهل تعرفون أنتم؟! ماذا ترون؟! لا تعرفون!؟ حسنا! ! ولكنى أعتقد أنى لم أتجـــاوز حدودى بعد! ! طالما لم أحتـــرق فى التو واللحظة! أو يُصَبْ لسانى بالشلل فأصمت إلى الأبد! ! !

هـــا أنـــذا أتكلم! فمـــاذا فعلتم أنتـــم؟! أثرثر فـــلا تنفعلون! أتساءل ولا من مجيب! ! مع أنكم لو أنصتم لفهمتم! ولو فهمتم لاندهشتم! ولو اندهشتم لســـألتم! ولو سألتم لعرفتم! ! يبدو أنه لا مفر أمامى من أن أقوم عنكم بكل شىء! أن أتكلم! وأنصت! فأفهم! لأندهش! ثم أسأل.. حتى أعرف! ! ! لو كان حالكم كما أتمنى لسألتمونى – ولكم كل الحق فى ذلك – ولماذا لم تخبرك قططك الســـبع بمكان قبر أمك!؟ لقد أخبرونى بالفعل! ولكن ما علمته منهم زادنى حيرة فوق حيرتى! ! إذ قالوا لى إن قبر أمى

فــى جزيرة تحيط بها المياه مــن كل جهة؛ ولولا انتماؤهم إلى الفصيلــة النارية لا المائية لصحبونى إلــى حيث أعثر عليه!! لكن كيف تجرؤ النار على الخوض فى الماء!؟ ذلك فيه ولا ريب انطفاء جذوتها وهلاكها الأبدى!!!

ها أنذا أعود وأكشــف لكم المستور مرة أخرى! ولكن ما عاد يعنينــى أن أجترىء؛ وأتعدى حــدودى فى البوح!! إذ أيقنت أنكم تملكون آذانا ولكن لا تسمعون بها؛ وأبصارا ولكن لا ترون!! فكيف لمن مثلى أن يخشــى البــوح لمثلكم!؟ ما دمتم على هذه الحال من جمود الحس؛ فلا ضير أن بحت؛ وكشفت؛ وتعديت الحدود!! أنى فى كل الأحوال آمن؛ والدليل على ذلك أنى لم أُمَسّ منهم بأذىً بعد!!!

من لى بأناس يفهموننى وأفهمهم! يفتقدوننى وأفتقدهم! منذ زمــن لم أعد أعبأ بطوله فقدت الأهــل والصحبة! حتى التقيت على غير موعــد بتلك الفتاة وأبيها المُقْعدَ! أحسســت نحوهما بمشــاعر مختلفة منذ اللقــاء الأول! نظرات الرجــل كأنما هى تمد لى بســاطا كريما يشجعنى على البقاء بينهما؛ حرارة اللقاء والوداع أحســها من الفتاة فى كل مرة؛ إنها جميلة؛ بل رائعة الحسن والمعشــر! ولكن ذلك شــىء ثانوى فيما يتعلق باتصال

حبل المودة بينى وبينهما كأول بشر يصلون بينى وبين ما انقطع مع عالم الناس من حب؛ وألفة؛ واطمئنان؛ ودفء!!.

أشــعر كأنما الفتاة تحمل تجاهى احساس أكثر من الشفقة؛ وأعلى مــن الرغبة؛ وأبادئها نفس المشــاعر!! حينما تحتوينا اللحظات؛ أشــعر أن اللحظة ذاتها إنما تجمعنى بجزء منى قد غاب طويلا! بضعة من كيانى تعود؛ تختلط بدمائى؛ تعيد إليها التوازن؛ والانسجام المفقود!!!

ترى ما الســر فى ذلك؟! أنها مثلكــم تتهمنى بالصمت دون أن تصــرح! ولكن ما أريــد البوح به أضخم من قدرة الكلمات!! فكيف أستطيع بالكلمات وحدها أن أقول لها: أنت لست نصفى الضائع فحسب؛ بل أنت كلى المتناثرة أجزاؤه هنا وهناك عبر السنين!!؟؟

أحس اليوم؛ وأنتم تنظرون إلــىَّ بعيونكم الزجاجية؛ برغبة هائلة فى العودة إلى منزل الرجل الطيب وابنته؛ بقدر ما تطردنى ريبتكم واتهاماتكم بقدر ما يجذبنى ذلك البســاط السحرى الذى امتــد لوجودى كــى يعبر به إلى دنيا البشــر الأنقيــاء؛ أولئك الذين لم تلوثهم الملابس المستعملة؛ والأَيمْانُ الكاذبة؛ والرغبة المجنونة؛ ووَطْءُ أطهر المشاعر!!

لــن أنظر ورائى؛ ســأغادركم غيــر نادم؛ فقــد عثرت على بدايــة الطريــق إلى عالمى المفقــود! عالم أمــى التى رحلت؛ وتركت وحيدها نهب البحر؛ والمدينة؛ والبشــر المُحنَّطين فى الطرقات!!

أجــىء إليكم يا... قِطْعةً مِنــىّ! فهل تخذلوننى كما خذلنى الآخرون!؟؟ ها أنذا أقف على بابكم؛ قاصدا لديكم أهلا وعشيرة؛ وقلوبا طاهرة! حتى قططى الســبع حين تَلَفَتُّ خلفى على عتبة البيت لم أجدها!! مددت بصرى إلى آخر المدى؛ لم أعثر لها علــى دليل! اختفت فجأة! صــارت أثرا بعد عين!! هل يعنى هذا أنها تركتنــى دون وداع وللمرة الأخيرة على العتبة الفاصلة بين عالمها وعالم البشــر!؟ بعــد اطمئنانها إلى وجودى بينكم؛ وعثــورى على الخطوة الأولى فى طريــقٍ طالت حتى ظننت أنْ ليس لها آخر!!!؟

وداعا إذن يا قططى الحبيبة!... وأهلاً بفتاتى الطاهرة وأبيها الطبيب!!!

الفصل السابع

انكشاف المستور

– مرحبا بك.. تفضل يا «حسن».
– أشكرك يا «نصرة».
– عجبا!!! ها أنت أخيرا تتكلم!!!
– نعم.. لقد آن الأوان!
– .....!!؟
– اختفت قططى فجأة.. ولم يعد لى سواكما!!
– ...!!
– شعرت أنى عائد إلى هذا البيت لا محالة!!
– .....!
– أحسست نحوكما بمشاعر مختلفة.. ولا أجد لها تفسيرا!!!
– «حسن».. ما سر تجوالك الدائم!؟
– أبحث!!
– عن ماذا؟!
– عن قبر أمى!!
– وهل وجدته؟!
– أوشكت!!
– أين تظنه موجودا؟!

– فوق جزيرة يحيط بها الماء من كل جانب!!
– ربمـــا كان فى مقابر المدينة.. مديتنا هذه هى نفســـها جزيرة يحيط بها الماء!!
– فتشت... فلم أجده!
– «حسن»... منذ متى تفتقد أمك؟!
– مذ وعت عيناى!!
– ومن أخبرك بموتها؟!
– أبى..
– ولماذا لم يدلك على قبرها؟!
– هذا ما لا أدرك له تفسيرا!!
– وأين أبوك هذا؟!
– لقد غادرتُ البيت منذ سنوات طويلة ولم أعد أبدا!!
– وما السبب؟!
– قسوة زوجة أبى وتسلطها..
– هل تعرف لك إخوة أو أخوات!؟؟
–لا...
– و أن لك أختا...
– أين؟!
– أقرب مما تتصور!!
– ....!!!؟
– «حسن».. أنا..

– أنت؟!.. أنت أختى؟! ولكن... كيف؟!!!

ظل الحديث بينهما يتدفق سلسلا؛ لا يقطعه سوى نَهْنَهةٌ تَنِدُّ عن الأب بين الحين والآخر؛ كان جسده المشلول ينتفض من فرحة اللقاء وياله من لقاء! بعد غياب سنين!!

– وماذا سنفعل الآن!؟

– سنذهب إلى الجزيرة!!

– ...!!؟؟؟

– جزيرة «تَنِّيسْ».. التى تتوسط البحيرة؛ قبر أمنا هناك؛ حيث عاشت طفولتها الأولى!!!

– نعم.. «تنيس»؛ سنعيش بقية عمرنا إلى جوار أمنا!!

– وسنترك المدينة بأناسها!!

– إلى حيث تشرق الشمس كل صباح بالحب...

– والصفاء...

– وسنبنى بيتا على شاطىء البحيرة...

– بالطوب اللبن.. والبوص...

– سنرحل فى الصباح...

– بل مع أول نسمات الفجر...

– إلى «تنيس»...

– إلى «تنيس»...

(١٩٨٩م - صلاح العزب)

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

الفصل الأول: عفريت المقابر ٥
الفصل الثانى: الحية ١٥
الفصل الثالث: الموكب ٢٧
الفصل الرابع: الأب ٤١
الفصل الخامس: الأبنة ٥١
الفصل السادس: حسن... يتكلم ٥٩
الفصل السابع: انكشاف المستور ٦٧

مطبوعات الفجر